مفاهيم عقلية

فى هذا الفصل نحاول إلقاء الضوء على بعض المفاهيم والقضايا – كما تبدو من عقول البعض – فى سياق الحديث عن العقل ، على أمل لفت الانتباه لأهمية المراجعة والتمحيص ؛ وذلك كأمثلة تطبيقية تُبرز أهمية وبعض فوائد إعادة النظر فى الكثير من الرؤى والمفاهيم والمعلومات الخاطئة المنتشرة كالوباء ، والناس عن الحقيقة غافلون **وعما أنذروا معرضون**. وعرض هذه المفاهيم وتحليل بعض أسبابها يتضمن نوعاً من التذكرة ، وتنبيه الوعى لوجود أزمة تصور عقلية تكمن خلف مختلف الأزمات التى يعيشها الإنسان. ووعينا بأزمة العقل الحاضر هو بداية التفكير فى معالجتها ؛ لأن تعاملات بعضنا مع بعض هى فى الأساس تعاملات بين العقول – رغم تباينها – ومن المهم أن تستشعر علاقتك بالوجود ، وكيف يعمل عقلك ، وكيف يفكر العقل الآخر – المقابل لك – وكيف يراك ، فذلك يوفر عليك الكثير فى تعاملك معه.

ونظرا لغرابة وصعوبة موضوع العقل وشدة غموضه واتساعه ، فنحتاج هنا لبعض المقاطع التمهيدية المتنوعة ، كإيضاحات اعتراضية ؛ لتفتيح أو تحسس جوانب الموضوع قبل الدخول فيه ، وهذا على خلاف التنظيم المألوف فى الكتابة حول المسائل المادية أو المحددة. ونشير إلى أن تنوع موضوعات أجزاء هذا الفصل وغيره من فصول هذا الكتاب لا يدعو للاستغراب ؛ لأنه ناتج عن

شدة ارتباط العقل بكل مكونات الإنسان وبمختلف جوانب الحياة (والوجـود) ، التى تبدو مترابطة بتشابكات متداخلة ومتبادلة التأثير. وربما يتأصل ويُصنف فى المستقبل ما يسمى بعلوم العقل ، بعد أن يدرك الناس وجوب العناية بنعمة العقل ، التى تُوجب الشكر (بدلا من الجحود) لواهبها ، الـذى هيـأ للإنسـان الفرصـة لأن يكون من أعقل المخلوقات.

ونحسب أن فى عرض بعض المفاهيم والقضايا - مـن جوانـب غـير التى ألفهـا بعض القراء - ما قد يحفز الفكر ويحرض عقل القارىء ، فيقبل من هذا العـرض ما يقبل ويرفض منه ما يرفض ، ويقترح ما يجود به فكره ، وينشر تلك العـدوى الحميدة مشكورا مأجورا. فتنشيط العقـل وحسـن استخدامه لبلـورة المفـاهيم الصحيحة وتعميق الرؤى ، كل ذلـك فـى صـالح الخـير ، ويسـهل اتفـاق النـاس حول الخطوط العامة للسلوك القويم على طريق الفـلاح. إن الإنسـان يمكـن أن يساق بالغرائز للهلاك وهو مخدر وغافل ، أو يحسن توظيف عقله للنجـاة بتوفيـق من ا لله.

هذا ولا نُغرق أنفسنا فى التفاؤل ، بل نُذكّر بأن فتح العقل المغلـق (المتحجـر) ، أو ضبط العقـل الفوضـوى (المـائع) ، أو إيقـاظ العقـل الغـافل (الضبـابى) ، مـن أصعب الأشياء ، لكننا لا نقنط ولا نتعجل ؛ فما تشكل فى سنوات يحتـاج فـى تغييره إلى سنوات أيضا ، ومن يتابع الطرق لا بد أن يلج ، والغاية مـن محاولاتنـا هى نوال رضا الكريم ، وليست إدراك النجاح الدنيوى (الكاذب).

وفى هذا الفصل نشير إلى مبادىء وبدهيات لا نحسب أن يعترض عليها عاقل ؛ لتكون مساعدات فى تقييم مبادىء وأسس الفكر. فصفات كالكذب والنفاق واللصوصية والخيانة والأنانية والتعصب يندر أن تختلف العقول حول قبحها ، ولكن فى تأمل السلوكيات نجد أن الكثيرين يخضعون لشهواتهم وأنانيتهم ، فيبررون لأنفسهم ثم لغيرهم أسباب تجاوز المبادىء والقيم المتعارف عليها ، وأحيانا يحدث التردى بلا وعى ، وفى غيبة أو تغييب العقل. وكثيرا ما تجد لغة الناصح ثقيلة وغير مفهومة ؛ بسبب جهل المستمع - بأبعاد الموضوع - أو بسبب كرهه للناصح أو شكه فى نصحه ، أو بسبب انشغال ذهنه بموضوع يحسبه أهم ، فتضيعَ النصيحة رغم أهميتها.

الوسيلة

نظرا للنقص الواضح ، وعدم بلوغ الكمال فى تكوين الإنسان والحيوان ، فكلاهما يحتاج - طوال مدة حياته - للتعامل مع محيطه ليستكمل احتياجاته ثم يحقق أهدافه. فهو يحتاج بالضرورة للمأكل والمشرب والملبس والمأوى كحد أدنى ، وبعد ذلك تأتى الكماليات وهى بلا حدود. وتظهر المطامع والصراعات - فى الغالب - كنتيجة للتنافس فى تحقيق الكماليات الزائدة وضلال الفكر والسعى.

وفى تعامل الحيوان مع ما يحيط به يستخدم أنسب الوسائل والأساليب التى تتراءى له ، بغض النظر عن حقيقة صحتها. والأساليب والوسائل تفوق الحصر ، نذكر منها : القوة العضلية ، اللسان ، السلاح ، الإشارة ، الترغيب ، الخداع ، التودد ، الترهيب ، الملاطفة.... إلخ ، ومن وراء كل ذلك نجد العقل ؛ فهو مخترع ومستخدم كل هذه الأساليب ، وهو الوسيلة الرئيسة للتعامل فى هذه الدنيا.

وكل حيوان يستخدم الأسلوب الذى يقتنع أنه الأجدى فى تحقيق الهدف المطلوب ، لكن ذلك يحدث وسط خلط أعمى بين الهوى والهدف. وقد تردد فى الأقوال المغلوطة أن : "الغاية تبرر الوسيلة" ، والفكر السامى - عند العقلاء - يتحفظ على مثل هذه العبارة. والاطمئنان لوجود الله وقدرته وعلمه ومراقبته يضمن سلامة الأسلوب ، والاقتناع بوجوب الالتزام بحدود ما شرع ، كما يُنقى الغايات من المساوئ والمطامع والشرور.

ويشترط فى الفكر السامى أن يحدد السبل المستقيمه التى تؤدى إلى الغايات السامية ، بيسر وبساطة وبلا تشنجات أو تعقيدات - تجعلها مستحيلة التنفيذ - وذلك هو السهل الممتنع. وطبقا للأسلوب المستخدم من قِبل أحد الأطراف يكون للأطراف الأخرى أنواع من ردود الأفعال تتوقف على طبيعة أسلوب البادئ وفهم الطرف الآخر له وقدرته على التعامل معه. وحين تتدنى الغاية فلا معنى لرقى الوسيلة.

ومن أهداف هذا الكتاب تعميق الكثير من المفاهيم التى تحتاج إلى تعميق ، رغم ما قد يبدو من بساطة ظاهرها فـى نظـر غـير المدققـين. ويرجـى بهـذا التعميـق توضيح الكثير من الحقائق الكامنة لتتضح الصـورة ، ودور العقـل فـى التعـامل ، ويتبين الصالح من الطالح والغث من الثمين ؛ فليس كل مـا يطفـو علـى السطـح قيما. وفى الظروف المضطربة والأجـواء العكـرة يصعـب تبـين حقـائق الأشياء ومدى رقى الوسائل ، وفـى مثـل هـذه الظـروف تضطـرب المعـانى وحتـى لغـة التفاهم يصعب الاتفاق على معـانى مصطلحاتهـا ، ويـلزم التحليـل الدقيـق قبـل الحكم على الأشياء وخصوصا جوانبها المعنوية والفكرية التى تمثل محـاور الجـدل الذى يشـغل النـاس ويستهلك طـاقتهم ، ومـا أكـثر المعـارك التـى نشـبت لهـذا السبب. وحينما ينضج الوعى تتضح الجوانب المعنوية للأمـور ويسـهل التفـاهم إلا حين تتدخل الأهواء ، فعندئذ تحاك المؤامـرات ضـد الحقـائق ويظهـر للبـاطل أعوان ، وتستمر المعارك إلى حين.

أما الجوانب المادية للموضوعات فهى الشق اليسـير لأن المقـاييس فيهـا واضحـة ومتفق عليها. فلا يستطيع عاقل أن يجادل فى حقيقة أن $4 < 4.001$ ، عنـد تساوى وحدة القيـاس وفـى نفـس الظـروف ؛ لذلـك فـالجوانب الماديـة يسـهل توضيح حقيقتها المجردة. وحسن التقييم والحكـم علـى الأشيـاء يتدعـم بسـلامة المقاييس ،.ولذلك فتفاوت المقاييس هو أحد أسباب الخلاف بين الناس. ولكـل مجال مقاييسه التى تناسبه. فميزان العلاف غير ميزان البقال غـير مـيزان الصـائغ

غير ميزان الكيميائى وهكذا ، رغم أن الغرض هو تقييم كمية المادة فى كل من الحالات المذكورة.

أما حين ترتبط الأشياء المادية بنوع من الوجدان فعندئذ تهتز ثوابت الأرقام وقد يصبح قدر الواحد أكبر من قدر الاثنين ، والألف يغلبون ألفين. ويروى أن رجلا ضاع منه جمل فمشى حزينا ينادى أن من يرد إليه هذا الجمل فسوف يُكافأ بجملين! فضحك منه بعض الناس ، فقال لأحدهم: يا بنى إنه الوجدان!

العقل والإيمان

العقل والإيمان جناحا الفلاح - فى هذه الحياة - ولا يعوض أحدهما نقص الآخر ، وكل منهما نعمة توجب مداومة شكر الكريم الوهاب الذى هيأ أسبابها. فعقل بلا إيمان يمكن أن يوصل الإنسان ليسيح فى الفضاء وينشغل بتربة القمر أو المريخ أو غيرهما حتى يهلك هنا أو هناك - غير مأسوف عليه - بينما إخوته فى الإنسانية يموتون جوعا. فعدد الجائعين - فى العالم وقت تجهيز هذا الكتاب - يقدر ب 840 مليون إنسان غير من يعانون من سوء التغذية !! جميعهم إخوتنا فى الإنسانية.

ولا يفهم من ذلك أننا ضد استكشاف ما يتيسر من الآفاق ، أو ننكر أهمية الاستكشاف عن بعد ، لكن يجب أن يكون ذلك بعد القيام بواجبنا على الأرض

، ولا يكون بهدف حماقات من نوعية ما يسمى بحرب النجوم! أو سفاهات وجهالات كمحاولة البحث عن موقع الله! **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ، وسبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

وعقل بلا إيمان يجعل الإنسان يبدد النعم والثروات وينتج المواد الفتاكة والقنابل التى تكفى لنسف الكرة الأرضية عدة مرات ، وقد **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس.**

العقل يبدأ بالتعامل مع محيطة المحسوس فيعى ويدرك منه ما شاء الله له أن يدرك من الأمور والمسائل المادية والمعنوية. وحين يكون العقل سليما غير مشوش فهو مهيأ بفطرته لاستشعار قوى ومؤثرات موازية غير مرئية ولكن آثارها موجودة وغير خافية. فلا يصعب على العقل السليم أن يؤمن بوجود حاكم - فوق عقل الإنسان - يُصرف الرياح ، ويُكسب المادة طبيعتها ، والزهرة رائحتها ، ويهدى أعضاء الجسم لتأدية وظائفها دون أن يعى صاحبها ، ويدير حركة النجوم فى مداراتها ، ويكور الليل على النهار ، ويدبر النهاية المأساوية الحتمية جزاءً للظالمين ، ويجعل الفوز المبين للصاحين ، ويظهر الحق على الباطل ولو بعد حين. كل ذلك يحدث بقوى غير مرئية ولا تدرك بالحواس ولا بأى أجهزة مادية ، لكن العقل السوى لا يستطيع الهروب من التفكر فى عظمة وحكمة مصدر تلك القوى الحاكمة.

والإيمان يتلخص فى التسليم العقلى الواعى بوجود هذا الحاكم العلوى – الذى **ليس كمثله شيء** – وكلما تغذى العقل السليم بالعلم الصحيح كلما غمرته السعادة بالتعامل مع الفكر العلوى الحاكم لكل شيء ، فما أسعد التلميذ المجتهد النابه بالاتصال بمعلمه الرحيم العظيم ، و لله المثل الأعلى.

والمدقق فى سِيَر بعض المفكرين ، الذين تقلبوا بين المذاهب الفلسفية والديانات المحرفة والإلحاد والكفر ، يلحظ أنهم قضوا أعمارهم يتقلبون فى نار الشك والحيرة رغم تضخم عقولهم! فخرجوا من عذاب الدنيا إلى وبال أنكى وأبقى ، ولولا العهد الذى التزمنا به – بعدم ذكر أى اسم إلا بخير – لذكرنا هنا أسماء كثيرة تكون عبرة لمن يعتبر ، والقارئ المثقف لا تنقصه الأمثلة.

والإيمان السطحى التقليدى الموروث – مع كسل العقل – والمعتقدات الخاطئة والفكر المشوش عن الله كل ذلك أوصل كثيرا من الناس إلى الخرافات وعبادة البشر والبقر والحجر والشمس والقمر والذهب والفضة ، وفى أحسن الحالات يقود الإيمان التقليدى – الموروث والضَيق – إلى الصوامع ، ويؤدى إلى غياب القدوة التى تحمل مصابيح الهدى وتتحرك بين الناس لتنير لهم الطريق. وغياب التبصير يتيح الفرصة للشيطان وأعوانه ليعيثوا فى الأرض فسادا ويُلبِسوا على الناس فتختلط المفاهيم ، فيرى عامة الناس أن الإنجازات الآلية ووسائل التحبر تأتى على أيدى الكفرة والملحدين فينبهر الناس ويفتنون ، والسبب الأصلى هو تقصير من ينتسبون للإيمان وانسحابهم السلبى من الحياة.

والإنسان بطبعه حين ينبهر - بفعل طرف ما - يصبح تلقائيا أكثر استعدادا للتسليم بسلامة موقف ذلك الطرف (الآخر) ؛ لأن العقل يكاد يفقد توازنه لحظة الانبهار. ولذلك فأهل الإيمان مطالبون بإبراز مزايا اكتمال العقل بالإيمان ، وترقية الإيمان بالعقل ، إبرازا واضحا يصمد ضد مخططات البغي والتشويش. وأهل الإيمان مطالبون - فى هذا العصر - بأن يطرحوا فكرا باهرا ويقدموا علما نافعا مؤصلا ومدعما ببراهين عقلية ومطبقا تطبيقا حيا ؛ لجذب الانتباه لفوائد الإيمان ، وهم مطالبون بالمساهمة فى صيانة عقول الناس وحمايتها من الخرافات والأباطيل والتهويمات ، وتنقيتها من الشوائب وكناسات ودنس الفكر الأعمى ، وتعميرها بعد ذلك بالمعارف الصحيحة المنيرة ؛ لفتح العقول على محيط زكى نظيف ونسمات رقيقة راقية.

إن الإنسان وهو يتحرك فى الحياة - بعلمه المحدود - ليحتاج لنور وبوصلة توجيه ، أو مؤشرات هداية ؛ حتى لا يضل ويكتشف فى نهاية المطاف وبعد فوات الأوان أن ما كان يلهث وراءه ليس إلا بريق صفيح مصقول ، أو سرابا فى بلقع. فالإنسان يحتاج إلى رؤية كونية ، ومنظومة قيم إيمانية تميزانه عن باقى الدواب التى تدب على الأرض. وهاتان الحاجتان يستشف العقل مضمونهما من أصدق المصادر التى تتاح له أيا كان مسمياتها : التجريب العلمى ، وحى السماء ، تجارب الآخرين ، أحداث التاريخ ، والحس الباطنى ، والصدق مع النفس. من كل هذه المصادر وغيرها ، دون تحيز ولا تعصب

ولا عناد ولا انغلاق ولا صد ولا جمود ، وبشرط يقظة العقل لتمييز الخبيث من الطيب والحق من الباطل ، والحكمة أبدا ضالة المؤمن.

التفكير

التفكير هو نشاط عقلى بحت يقصد به تشغيل أو استثمار المعلومات بالعقل ؛ للحصول على فوائد معنوية مطلوبة لذاتها ؛ لأنها تنير العقل وتُمتع صاحبه ، ويمكن أن تترجم إلى فوائد مادية تريح الجسد والنفس وتساعد فى حسن عمارة الأرض. وكلا النوعين – من الفوائد – يتصل بحياة الإنسان إيجابا وسلبا ؛ نظرا لوجود تفكير طيب وتفكير خبيث ومخاليط بين هذا وذاك. وتشغيل المعلومات يتضمن التقليب والفرز والتنقية والترتيب والتنظيم والتزاوج والتوليد (الاستنتاج) وإعادة التدوير ..... إلخ ، وناتج هذا التفكير نسميه فكرا وهو مادة عقلية فى جميع الأحوال.

التفكير نشاط عقلى خلاق للفكر والمعانى. وتشغيل المعلومات – كعملية استثمارية هادفة – تحتاج لتخطيط وتنظيم وجهد يبذل ومراقبة وتقويم ومراجعة ، أملا فى النجاح ، وكل هذه الأنشطة ذات طبيعة عقلية معنوية. فوراء أى نهضة يجد المدقق نشاطا عقليا مكثفا ومتطورا يبتكر ثم يوجه الطاقات ويحث العضلات والجوارح لتعمل. والنشاط العقلى ككثير من الأنشطة البدنية يلزمة تحفيز واستثارة ، وهو لدى الغالبية يحتاج لتحديات ومحركات كى ينشط ،

وتلك مسئولية الرواد ، أن يوقظوا عقول الجماهير لتحفيزها. وفى المقابل يوجد قلة من العقول ذات الطبيعة النشطة التى تأخذ زمام المبادرة الفكرية فى معظم الأحوال.

والمشاريع الاستثمارية عموما لها اقتصاديات حجم ، فكلما توفرت المعلومات – التى هى رأس مال ولوازم الإنتاج الفكرى – الجيدة للعقل السليم كلما تهيأت فرص النجاح. وهنا تبدو أهمية المعلومات كيفا ثم كما ، لذلك أفردنا لمعلومات العقل فصلا خاصا.

ويلاحظ أن التفكير – كنشاط عقلى – يقف وراء كل العلوم البشرية ، ويجب على الإنسان توظيف هذا النشاط لتحقيق أقصى درجات الفائدة ؛ فالإنسان فى حياته القصيرة لا يجوز أن يضيع وقته فى الترف والتكاسل ولذة التثاقل وفضول الأقوال والأفعال وعيشة "السبهللة". والتفكير ميسر للإنسان طول فترات اليقظة ، فالحواس تلتقط والعقل جاهز لتفكير – بفضل الله. وإذا لم يتم بذل الجهد الذهنى لاختيار موضوعات جادة وجيدة للتفكير فسوف يقوم إبليس بطرح العديد من موضوعات الفساد ، ويستدرج العقل حتى يغرقه فى الضلال ، وعلى اللبيب أن يتأمل ويتعظ ، فما أكثر الأمثلة.

وما أكثر القضايا المادية التى تشغل الناس ولا تتيح لهم فرصة أن يتأملوا التوجهات والأهداف التى يتحركون نحوها ، أو يراجعوا ما يعتنقون من أفكار

ومعتقدات وتقاليد وصلت لعقولهم بالاستطراق أو الارتشاح! وأكثر الناس يتشككون فى النصح ولا يثقون فى الجديد - خصوصا كبار السن - ويفضلون الاستسلام والركون لما ألفوه ووجدوا آباءهم ومجتمعهم عليه. فكيف ننبه العقل؟

الفكر

لا حضارة بدون معرفة ، ولا معرفة بدون فكر ؛ فالفكر هو سبيل المعرفة ، ورسالة الفكر هى فهم الواقع ؛ بغرض المساهمة فى تعديله بالفكر الأفضل. ولكل حضارة نوع من الفكر يناسبها. صحيح أنه يمكن حشد القوى وتجييش الجيوش لأهداف مادية لكن لا تلبث أن تتفرق وتذوب دون أن يكون لها دولة أو حضارة ، ومن أمثلة ذلك التتار والمغول. فبناء الدول والحضارات يلزمه فكر يجمع نسبة (حد أدنى) من القوم. والفكر لا يشترى ولا يباع وقد فشلت محاولات تصديره واستيراده بحالته ، إذ لا مفر من أقلمته ليناسب العقول. وأنسب الفكر هو ما ينبع من البيئة والوقع. ولأن الفكر ليس ضروريا لاحتياجات الجسد المباشرة والعاجلة ، فنادرا ما يشعر العامة بأهميته ، إلا أنه حينما يفرض على بعضهم نتيجة نوع من المعاناة ، حين يتعرض الإنسان لأزمة معنوية أو إعاقة حركية أو عجز بدنى عندئذ يتنبه ذلك الإنسان ، فيفتش فيما بقى له من إمكانات فيجد العقل. وأذكر ما قاله أحد المعارف ، بعد أن تعرض لحادث سيارة أقعده فى الفراش لمدة عامين: "لقد تعلمت من هذا الظرف ما لم

obeikandi.com

أتعلمه طوال حياتي، لا في المدرسة ولا في الجامعة، ولا يوجد في الكتب: إنني أصبحت شخصا آخر، بعد أن اكتشفت عقلي".

وفي المقابل يوجد قلة من البشر خلقهم الله مرهفي الحس فيشعرون دوما بأهمية توظيف العقل، وأي وظيفة للعقل تكون أنسب من التفكر وتقويم الفكر؟! وإنتاج الفكر يحتاج إلى صبر؛ لأن نتائج الفكر ليست عاجلة وليست مربحة ماديا إلا عند المستغلين، وهذا الصنف غالبا ما يتعجل الماديات قبل الفكر، فلا يقبل على هذا النشاط إلا القليل من الناس.

مما سبق يتبين أن الفكر هو نتاج العقل النشط، فضلا عما يُوحى به من قبل العليم الخبير وأهل الإصلاح، أو من قبل الأبالسة. وهذا الفكر يمكن أن تُلقن نسبة منه للعقول متواضعة النشاط لتوجيهها وجهة معينة يقصدها واضع الفكر أو رائده. ومن نافلة القول، نذكر أن نوعية الخامات ولوازم الإنتاج تؤثر بشدة في نوعية المنتج، وهذا المعنى وارد في مجال الفكر أيضا. فترى الفكر الكَوني والفكر الدُوني وما بينهما. فعلى سبيل المثال، تجد الفكر الكوني يقول: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِ دَآبَةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ - الآية 164 - البقرة. أما الفكر

الدونى فيصرخ ويلطُم يقول : "ستضيق الأرض بأهلها ، ومن أين سنطعم الأفواه التى ستولد فى المستقبل"! هذا لأن صاحب هذا الفكر الدُونى يجهل أنه جاء لهذه الدنيا دون أن يُخطِط لمجيئه هو ولا أجداده ، ولسوف يغادرها - بعد طول عمر - دون أن يستهلك من مكونات الأرض ذرة واحدة ، كما يجهل أن مكونات جسمه سبق أن دارت (بِقَدر) فى ملايين الأحياء قبله دون أن تنقص شيئا.

هذا الدونى البائس الذى يجهل مقدار ما يحتويه جوفه من ... و... ، يحسب أن هذا الخلق المُعجز يحدث عبثا كنتيجة عشوائية للاتصال الجنسى ، وأن خالق هذه الأنفس قد نسى أن يخلق لها أقواتها - أستغفر الله العظيم. وهذا المسكين يجهل أن العلم أوسع كثيرا من المادة ، وأن العلم يمكن أن يضاعف إنتاج المدخلات المحدودة إلى ما شاء الله لها أن تتضاعف ، وقد فصلنا هذه الجزئية فى فصل بعنوان "العلم نور العقل".

والفكر السائد أيا كان نوعه هو الذى يقود حركة المجتمع فى اتجاهه ، وحينما يموج المجتمع بالعديد من الأفكار المتعارضة يكون المجتمع هو الضحية ؛ فالتخبط والصراعات تستنفد طاقة المجتمع وتشل حركته ، ويفشل المجتمع فى تحقيق أى تقدم أو بناء حضارة ، بل يتساقط فى تطور متتابع من سيء إلى أسوأ. والفكر المتفتح الجيد يوجه المجتمع للفلاح ، بينما الفكر الفاسد يورد المجتمع موارد التهلكة.

فى كل حضارة يمكن تمييز شق فكرى وآخر علمى رغم التداخلات الوثيقة بينهما وتغذية كل منهما للآخر. ووراء كل حضارة تجد مفكرا أو مجموعة متكاملة من المفكرين المخلصين لقضية أو أكثر ، وقد جرت العادة على تسميتهم "رواد النهضة". ولا يشترط أن تكون كل الحضارات نظيفة ، ولا يشترط فى روادها السمو ولا الطهارة ، ولكن كل يقود على شاكلته. وللقارئ أن يتأمل بعض علامات الطهارة لدى بناة الحضارة المصرية القديمة ، فكل رسوماتها وتماثيلها مستورة العورة رغم حرارة الجو المصرى ، مما يدل على روح الفكر الإيمانى. أما إنتاج الفن الأوروبى - القديم والحديث - فقد تمرغ فى الوقاحة حتى صار رمزا وخادما لها ، رغم شدة برودة الجو هناك! ولمحة واحدة للتماثيل الإغريقية أو ما تبثه وسائل الإعلام الغربية كافية لإيذاء الحس الزكى!

ومفتاح النجاح أن يكون المفكر قادرا على عرض فكره بإقناع وسط مناخ يسمح بذلك. وكما تنشأ الحضارات على أيدى أصحاب الفكر ، تذبل الحضارات على أيدى قصار النظر من أهل الطغيان ، وخدمهم من محترفى التسفل ، وهكذا ترحل الحضارة من موضع إلى آخر ، فهى ليست حكرا على جنس ولا وطن ، لكن هى لمن يستحقها. فالفكر يُوجه ويضع أسسا ، ويحدد نوعية وأخلاقيات التقدم الحضارى المنتظر.

فالحضارة نتاج تفاعل العقول النشطة – والـمُنشطة – مع قضايا ومشاكل الحياة ، ويتحقق النجاح بقدر ما يُبذل من جهود منظمة. واليقظة الفكرية تمهد وتحفز وتدفع الأنشطة العلمية والثقافية المتعاونة لتحقيق التقدم. فالتقدم العلمى لا يقوم على العقول العلمية المتميزة وحدها ، بل يلزمه نظام فكرى متكامل يهيىء المناخ ويجمع العقول ويصهرها فى بوتقة جماعية لتخليصها من أكبر قدر ممكن من شوائب الأنانية والتعصبات والصراعات البينية والنظرات الضيقة. الفكر يدعم العقول ويحافظ عليها من أجل بحث علمى يتعامل مع قضايا المجتمع والواقع ، وذلك يحتاج لتنظيم يضع كل عقل فى مكانه المناسب بحياد وتجرد.

وكثيرا ما نرى عقولا متميزة تهجر وطنها – والمجتمع الذى نشأت فيه – بحثا عن مناخ أفضل للعطاء ، أو طمعا فى فرص أشد إغراء لتحقيق نجاحات مادية ، وفى كلتا الحالتين يكون العيب كل العيب فى المناخ الفكرى الذى نشأ فيه هذا العقل ؛ فهو إما مناخ طارد وإما غير جاذب ، وفى الغالب نرى أن معظم العقول المتميزة لا تستريح مع هذا الطرد أو ذاك الإهمال.

نحن فعلا فى عصر العلم ، ويلزم له مجموعات – متوافقة فكريا – تتخصص وتتكاتف وتوزع الأدوار وتتعمق ، أما التشرذم فيفرض التسطح والجهل. فالتعمق العلمى يحقق المزيد من الفهم وإنارة العقل ويُسهل الإقناع ويحسم الكثير من المجادلات والخلافات ؛ والجهل هو مرتع كل الخلافات ، وفى مقدمتها الخلافات الفكرية.

obeikandi.com

إن الجهود الفردية لم تعد تستطيع تحقيق إنجاز يذكر فى عصر التكتلات والأجهزة المنظمة ، والإنجازات البارزة تأتى نتيجة جهود فرق وجماعات منظمة ومتعاونة. والفكر السامى يقول: إننا لا نقصد مزاحمة أحد ؛ فتلك نظرة ضيقة ، ولكن هدفنا هو السيطرة على أنفسنا وتقويمها وبذلك تستقيم أحوالنا ونصبح تلقائيا فوق أى منافسة.

تباين الفكر

الفكر هو أساس الحضارة ، فلا حضارة بدون فكر. فالفكر شق جوهرى حاكم فى الكيان البشرى. وعلى حسب نوعية الفكر تكون نوعية الحضارة ، فالفكر المادى تبنى عليه حضارة مادية ، والفكر السامى تبنى عليه نهضة سامية ، وهكذا نجد حين نتأمل الحضارات أونصنفها. وبعد التسليم بأن الاختلاف سنة كونية قدرها (بحكمة) العليم الخبير - تبارك اسمه وجل شأنه - يستطيع المتأمل أن يدرك أنه بدون التباين يتعذر تصور وجود حركة أو حياة أو أى نوع من النشاط. فى مناخ الجهل يؤدى التباين إلى الصدام ، لكن بحسن الفهم يمكن توظيف التباين لتحقيق التناغم المتسق المتكامل.

ويمكن القول بأنه لا يوجد فى الكون شيئان متماثلان تماما ؛ لأن قدرة الخلاق وعظمة صنعه أبدع وأوسع من أن تلجأ للتكرار الرتيب والصُنع النمطى ، إنما

يوجد تشابه ويتعذر على محدود القدرة أن يدرك الفروق الدقيقة بين المفردات التى تشترك نوعيا ونسبيا فى بعض الأطوار والصفات والخصائص والمقادير الظاهرة. فبالرغم من محدودية عدد أعضاء وجه الإنسان - مثلا - فلا نجد بين ملايين البشر وجهين متماثلين تماما ، وفى الوجه الواحد لا توجد عينان متماثلتان تماما. وينطبق هذا الأمر على الأنامل والبصمات وحتى الخلية وما هو أدق منها. ولكن حين تعمى البصائر ، ويتدنى الفكر فى ظلمات العقول ، تجد من لسان حاله يقول: ﴿.... **إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا** ....﴾ الآية 70 - سورة البقرة. هذا فى مجال المادة الواضح والجامد نسبيا!!

أما فى مجال الفكر ، فيجد اللبيب أن التباين بالغ الوضوح ؛ نظرا للمرونه الفائقة للعقل البشرى المتفتح ، فلا نجد شخصين لهما نفس الفكر بالضبط حتى ولو كانا توأمين وتربيا فى نفس البيئة والأسرة والبيت والمدرسة...إلخ ، ولو اشتركا فى بعض الأعضاء كما فى حالة التوأمين الملتصقين المشتركين فى معظم الأعضاء ، كالنصف السفلى من الجسم وبعض الأجهزة الحيوية. وانطباق وجهتى نظر أمر مستحيل ، لكن توجد مساحات اتفاق مرنة تزيد وتنقص ، ممثلة بالمساحة البيضاء فى شكل (1) ، وهذه المساحات "معلوماتية" نوعية رمزية وليست مطلقة. وحينما تزيد مساحة الاتفاق تزيد الألفة ، وفى محيط الجهل عندما تزيد مساحة التباين (المساحة المظللة بالشكل) تزيد الجفوة. فكل من الاتفاق والاختلاف حقيقة مرنة موجودة دوما ، وأيهما تطغى فهى التى تبرز على حساب الأخرى. ولدى العقلاء هذا التباين مفهوم وواضح ومطلوب بل

ضرورى – للثراء الفكرى – ويمكن أن يوظف إيجابيا كما ذكرنا. لكن تبرز المشاكل حين تعجز العقول عن استيعاب ذلك. ويوجد كثير من العوامل التى تؤثر فى مساحات الاتفاق والاختلاف ، كالمصالح والأهداف والإقناع والفقه والأهواء والخلفيات والأخطار والشهوات ..... إلخ. ويمكن تغيير كل من مساحات الاتفاق والاختلاف بمخططات إقناع حسب الطلب ، وما أكثر ذلك فى التاريخ لمن يتدبر.

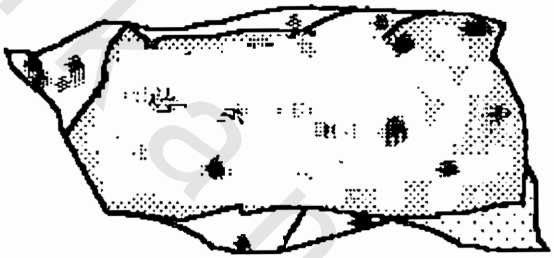

شكل (1). تمثيل إتفاق واختلاف الفكر بين عقلين.

ومما يؤيد قابليتى الاتفاق والاختلاف – فى النفس البشرية – أن الإنسان فى لحظة الرضا النفسى يكون متفقا مع نفسه بناء على استقرار النوعية المعلوماتية حول الموضوع الحاضر فى الذهن بغض النظر عن الاختلافات التى يمكن أن تثور حول موضوع آخر معلوماته كامنة فى الذاكرة. وكثيرا ما يختلف الإنسان مع نفسه! ويتأكد ذلك حين يقول الإنسان لنفسه : "ياليتنى فعلت كذا ولم أفعل كذا". هذا اختلاف مع النفس هو اعتراف – غير مباشر – بقصور أو محدودية العلم البشرى وتقلبه بين الأمس واليوم ، بل بين لحظة وأخرى. وتعليل

obeikandl.com

ذلك موضح فى سياق الحديث عن العقل. وما دام الاختلاف مع النفس قائما ومشهودا فالاختلاف مع الآخر يجب أن يكون مفهوما لأولى الألباب.

وللزوم التحليل - فقط - نقسم الفكر إلى نوعين : نوع يغلب عليه الطابع المادى المظلم ، وآخر يتميز بالطابع المعنوى المنير. فالطابع المادى قريب من صفات العمى والصمم ، أما الطابع المعنوى فيمكن أن يوصف بأن له سمعا وبصرا. هذا ولا يوجد فى الحياة فكر خالص المادية ولا فكر خالص المعنوية ؛ لأن طبيعة الإنسان فى هذه الدّنيا مزدوجة ، إنما يوجد فكر مزيج متنوع منهما ، كطبيعة الحياة وطبيعة الإنسان.

المشروعات الفكرية

المشروع هو مخطط ذو هدف أو أهداف نافعة أو مقصودة ، ونجاح وفشل المشروعات وارد بدرجات متباينة. والأمثلة المادية لمشروعات العصر الحديث تفوق الحصر ، وأغلبها تركن أساسا إلى المادة وتلهث وراء مغرياتها وبريقها الزائف ، ثم لا يلبث مصمموها ومنفذوها أن يتبينوا أن الجرى كان وراء بالونة السراب ، وأن المادة تحولت فى النهاية نحو مسارها المرسوم طبقا لنواميس لم تكن مرئية للعقول يوم تصميم المشروع البشرى (المادى).

obeikandi.com

والمشاريع الفكرية تبدو – حتى الآن – أقل كثيرا – عددا وحجما – بالنسبة للمشروعات المادية ؛ لأن الأولى لا تلقى التقدير الكافى فى عقول الناس ؛ نظرا لضعف إحساسهم بها أو إدراكهم لها. والترابط (أو التكامل) بين المشروع الفكرى وترجماته المادية يمكن توضيحه فى كل حالة على حدة. وفى السياق نذكر ما سمى بالمشروع الشيوعى بتنوعاته – غير المأسوف عليها – ثم المشروع الرأسمالى الذى نتوقع إعلان إفلاس كل أنواعه فى يوم قريب ، مهما تعددت محاولات الترقيع إلى حين. فالخلل يكمن فى الفكر ، والفكر لايصلح فيه الترقيع ؛ لا بد من التنقية ونبذ الزيف والغثاء ، فالاستقرار لا يستريح إلا على القواعد الراسخات.

والإنسان من المفروض أن يكون هو محور كل المشروعات من حولنا ، لكن الواقع غير ذلك ، حيث نجد المشروعات المادية تسحق الإنسان سحقا ، ولذلك تجد قلوب الناس تنصرف عن كثير من المشروعات المفروضة عليهم أو التى لم يفهموها ؛ فنقاط حكم وتوجيه وجذب هذا المخلوق – الإنسى – توجد بداخله وليست خارجة ، فهى معنوية أكثر منها مادية. فمن يسيطر على قلب الإنسان يُسيره إلى حيث يريد ويأخذ منه ما يريد. وشتان بين جدوى السيطرة على القلب (العقل) ومحاولات السيطرة على الجسد.

بعد هذا التمهيد نذكر أن مشروعات المرسلين – صلوات الله وسلامه عليهم – كلها فكرية ، وجاءت لتوجيه البشر وتعليمهم كيفية التعامل مع مختلف مفردات

الكون بالرفق واللطف واليسر والاتساق. وقد ورد في الحديث الشريف عن طريق أبي هريرة - رضي الله عنه - في الأدب المفرد للبخاري ، ومستدرك الحاكم ، وعند ابن سعد ، وفي شعب الإيمان للبيهقي ، قوله - صلى الله عليه وسلم : " *إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق*". هذا هو مسمى مشروع الرسالة الخاتمة ، فقد كان الفكر السامي المحلي بمكارم الأخلاق هو ما نادى به جميع رسل الرحمن الرحيم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ولكن إبليس وأعوانه كبر عليهم ذلك.

والمشروعات الفكرية - بتنوعاتها - هي الأساس المعنوي للنشاط البشري إيجابا أو سلبا ، وحينما يُفتقد المشروع العام تبرز المشاريع الخاصة والفردية ويشيع الخلاف وتتنازع الذوات وتتصادم. وفي المشروعات الفكرية ، ترى الفاضل يود لو كان كل الناس فضلاء ، ويسعى في سبيل نشر الفضائل ، وعكس ذلك ترى الناقص يود أن يكون الناس ناقصين ، ويحاول إشاعة ذلك بكل الرذائل والافتراءات.

الفاضل لا يغضب لنفسه ولا يهمه كثيرا الانتصار لها ، بل يغضب إذا انتهكت محارم الله - يغضب لله وفي الله. الفاضل ليس لديه شهوة عدوان ولا مخططات انتقام ، بل تراه مخبتا وقد جسد الرسل والأنبياء المثل العليا في ذلك السمو الفكري. ولا نجد من العبارات ما يمكن أن نصف به رقي فكر يوسف وسمو نفس ذلك الصديق - صلوات الله وتسليماته عليه. وماذا غير آيات

الذكر الحكيم يمكن أن تبرز طهارة وسمو فكر "إمام المخبتين" رسول الله عيسى ، عليه وعلى أمه – الطاهرة المصطفاه – أفضل الصلاة وأزكى السلام!

الحضارة

الحضارة مصطلح جذاب ، ولكن يوجد الكثير من الخلط فى تحديد معنى ذلك المصطلح ، أو فى فهم معناه. ومن الخطأ أن نفهم الحضارة بمعزل عن الإنسان الذى تُصنع به ومن أجله الحضارة ، فتكوين الإنسان وغايته يجب أن يكونا واضحين فى صياغة الحضارة ، فإنسان القيم والأخلاق والمشاعر والفكر الخلاق وحسن التنظيم والتعامل ، هذا الإنسان هو محور الحضارة الراقية إن وجدت.

الحضارة الإنسانية هى محصلة الجهد البشرى على مر العصور تعاملا مع الكون والمحيط ، وتعرفا على النفس ، وفى كل زمان للحضارة أحوال. وفى عصرنا الحاضر ربما توصف الحضارة بالفتوة الآلية. ويرى البعض أنها ذات نزعة علمية تطبيقية مفرطة فى المادية ، وفى نفس الوقت فما يعربد فى أعصابها وشرايينها من صخب وعنف وهوس يعود بها إلى الوراء .

كثيرا ما يتصور الناس أن التحضر يعنى التجاوب مع آخر صيحات العصر (الحاضر) الفلسفية والمادية ، ومن يتأنى فى مراجعة وتقويم هذه الصيحات يعد فى نظر البعض رجعيا ومتخلفا ، وكأن الحضارة مصبوبة على قضبان سكة

obeikandi.com

حديد التاريخ التى أولها بساطة الحياة الطبيعية - أو الطبيعة الغفل - وآخرها فتوة العضلات المعدنية والخرسانية والتفجيرية. ويتصور الكثيرون أن راكب الطائرة أرقى ممن يسير على شاطىء النهر ، وأن البلاستيك أرقى من الخشب ، وأن الغنى أفضل بالضرورة من الفقير ، وأن التقدم يعنى تقليد الخواجة. يحسبون أن الأكل بالشوكة والسكين واقتناء الأدوات المستحدثة ، و "الإتيكيت" ، دلائل رقى حضارى لا تقبل الجدال ولا البديل ولا المراجعة ، وتحنيط وتجميد الأطعمة يعتبرونه تقدما تقنيا وضرورة حضارية! وفى غياب العقل أصبحت أسعار المثلجات الملونة - رغم مضارها - أغلى من أسعار الثمار الطبيعية! وندفع الثمن من صحتنا مستسلمين لما قادنا إليه كسل العقول!

وعلى الجانب الأخلاقى أصبح كشف العورة والتفنن فى عرض اللحوم البشرية من أبرز علامات التحضر! وكأن المراقص والخمارات ودور البغاء هى المنابع الحضارية للتقدم الفكرى والسعادة!!! لقد تزينت العورات الأخلاقية بمسميات ملساء كالدبلوماسية والتحضر ومعايشة العصر. ومما يؤسف له أن الكثيرين ممن تسلط عليهم الأضواء ويستمع الناس لهم يوغلون فى هذا التيه لدرجة لا تمنعهم من اعتبار خير خلق الله أصحاب فكر تقليدى متواضع الحضارة على أحسن تقدير! هذا هو مفهوم البعض للحضارة - ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يحسبون الطريق المزين الصاخب هو طريق الفلاح ، وأن التطاول فى البنيان الجاف وصنع وسائل التدمير عبقريات عقلية وإبداعات علمية! وهم فى غمرة

obeikandi.com

الزهو تقطعت أواصر إنسانيتهم وأرحامهم وتمزقت أسرهم وانسحق البسطاء منهم والضعفاء. يحسبون الإفراط فى الرفاهية والتضخم التقنى وقوة أذرع الآلات والعقول (البشرية) المبرمجة مؤشرات رقى ، ولكن الإنسان المتأمل يجد الحقيقة المرة تصرخ فى قلوب الناس فزعا وقلقا من القيم السوقية ، وقوانين الغاب والمافيا ومختلف عصابات الإجرام التى تستخدم آخر ما وفرته التقنيات الحديثة من عضلات آلية فى خدمة الشر والشهوات.

وهذا الوصف المتواضع لمرارة واقع الحضارة المزعومة ليس مبالغة من جانب المؤلف ، ولكن ها أنا أنقل – حرفيا – بعض ما نشرته وسائل الإعلام يوم 26 نوفمبر 1996 من "عاصمة النور! باريس" : "دق علماء النفس الفرنسيون ناقوس الخطر للتحذير من تفشى ظاهرة الانتحار ، خاصة بين الشباب الفرنسى الذى يعانى من آفات أخرى كالإدمان والإيدز ، الأمر الذى يهدد مستقبل البلاد ، وتسود حالة من الفزع أوساط وزارة الداخلية الفرنسية ؛ لإرتفاع نسبة المنتحرين من رجال الشرطة إلى معدل خمس حالات انتحار لضباط وجنود كل شهر. وكان عدد المنتحرين فى فرنسا قد تضاعف فى السنوات الأخيرة ، حتى بلغ فى العام الماضى 13000 حالة."

هذا الذى قرر الانتحار قد أظلمت الدنيا فى وجهه بسبب شدة ظلام عقله الناتج عن ضلال الفكر الذى تربى عليه. فهل ينكر المنصف أن الإنسان يواجه أزمة عقلية فكرية!

حين تفتقد الغاية تمـرح الدنايـا ، وكـل يهيـم فـى محـراب وثنـه ، ويبحـث عـن صفقات يعقدها مع أتباع بقية الأوثان لتبادل المنافع المتوهمة ، و "الكفر كله ملة واحدة" ، والمبدأ فى مثل هذه الحالات ، أن كـل شـىء مبـاح وقـابل للتفـاوض والبيع والشراء ، حتى الأجساد والأعضاء والأعراض والأرحام ، والمصلحة التـى تروق أو تبرق فى الأفق تصبح هى الهـدف المنشـود إلى أن يلـوح غيرهـا فتوجـه الخطط والشباك لاصطيادها. وقبعـات الحريـة الشـخصية جـاهزة ويوجـد منهـا مختلف المقاسات والأشكال المرنة التـى تزيـن الـرأس دون أن تسـتر العـورة. إن الأبالسة يلوحون بالفسوق (والرجس) مغلفا ومُجْمَـلا فيتلقفـة الصبيـة والعميـان ويفصلونه تفصيلا.

تلك الحضارة الآلية الحمقاء ، حضارة العقول المائلة ، حضارة **الظانين با لله ظـن السوء** ، أشعلت فى ربع قرن حربين عالميتين لم تشهد البشرية لدمارهمـا مثيـلا على طول التاريخ ، ولا يكبح قيام الحرب الثالثة إلا الخوف من التدمـير الشـامل للحياة على وجه الأرض وهم **أحرص الناس على حياة** ، ومع ذلك فليس هناك ما يضمن ألا يفعلها مجنون.

إن حضارة العصر لفى موقف حرج ، والفشل يهددها مـن كـل جـانب ، لقـد بنيت تلك الحضارة بدون فهم حقيقة الإنسان المطلـوب إسـعاده ، إنهـا تولـدت من اكتشـافات علميـة حِرفيـة ، وتلبيـة لشـهوات مـن يملكـون المقـدرة الماديـة ،

فراهنوا على الجسد.وهو الشق الأدنى فى الإنسان فأهانوه ، لكن الإنسان خُلق ليكون أسمى من ذلك. لقد أهملوا الطبيعة المعنوية للإنسان و لم يدركوا أهمية تكامل مكونات النفس البشرية. فيجب أن نفهم طبيعة النفس البشرية وغايتها فى الحياة أولا ، وبعد ذلك نصمم النموذج الحضارى الذى ينسجم مع طبيعتها ويتوجه نحو غايتها ، هذا هو الترتيب العقلى وليس العكس ، وإلا أصبح الإنسان ترسا أو مسمارا فى آلة الحضارة التى تسحقه وهى تخدم أغراض الشيطان.

إن ما عرف من مكوَنات الكيان البشرى ليس إلا فتاتا علميا مهزوزا ، جاء نتيجة تجزئ مبتدع من تصوراتنا وفى حدود إمكانات قاصرة ، أما الحقيقة فلم تزل مجهوله ؛ لأن التجزئ غير المنظم يضر بفهم الحقيقة ، ولذلك فالمئات من الأسئلة حول الإنسان تظل بلا جواب ؛ لأنه ما زال مجهولا ومعرفتنا لعقولنا خصوصا ما زالت شديدة البدائية ؛ لأن العقل أهمل طويلا بسبب الجهل بأهميته وحاجته للتنمية والرعاية ، وفهم لغته ومعانيه.

لقد شاع التسليم بأن فهم كل جزء من مكونات النظام على حده – بالتشريح والتحليل – يكفى لفهم النظام ككل ؛ لكن ثبت عدم صحة هذا التصور ؛ إذ لا بد من فهم النظام ككل ، والغرض من وجوده والوظائف التى يؤديها ذلك النظام ، وبعد ذلك نبدأ فى تفصيل عناصره وجزئياته. فالأجزاء المنفصلة لا

يمكن أن تمثل الكل ، وما نعرفه من معلومات عن بعض الإنسان لا تكفى لفهمه ككل ، لا بد من فهم علاقة الإنسان - ككل - بالكون وموقعه منه.

إن الخلل الفكرى - والتفسخ الخلقى - الذى صاحب التقدم الآلى فى هذا العصر كانت له آثار بالغة السوء على جوهر النفس البشرية. إن الأمر ليبدو وكأن النفس البشرية قد تأثرت بالصفات الآلية فأصبحت تقلد الآليات فى الجمود والبرود وتبلد الحس والتحرك الأعمى فى اتجاه محصلة القوى المصطنعة ، بغض النظر عن العواقب أو المخاطر!

ليس من صالح البشرية أن تتفسخ الحضارة ويتدمر صرحها المادى وتضيع جهود الإعمار التى لا تنكر ، وفى نفس الوقت فالتهاون فى مقاومة القبائح والآثام والرذائل يهدد الجميع ، من يدرى ومن لا يدرى. إن الإندفاع المادى الرهيب يجب كبحه وترويضه وتوجيهه نحو الغايات الإنسانية. مطلوب ترشيد حضارة العصر.

الرزق

الرزق وما أدراك ما الرزق؟ إنه هبة من عند الرزاق الذى لا تنفد خزائنه ، جل شأنه - فأى شيء أوسع من ذلك! فكيف تضطرب العقول قلقا وخوفا من ضيق الرزق! إن من يُخلق يتنزل رزقه من السماء ومن لا يُخلق أو يمت ينقطع

رزقه ، وكل شيء بقدر ، ولا تُخلق نفس بدون رزق - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. والرزق ليس مقصوراً على المال والمادة فقط ، بل يشمل كل شيء ، مادي ومعنوي وما لا نعرفه غيرهما ، بلا أي استثناء ، وقد تأكد ذلك واضحا جليا محكما وصريحا : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ .... ﴾ الآية 21 - سورة الحجر. سبحانك ربي ، الشيء الواحد له خزائن وليس خزينة واحدة! تباركت ربي وتعاليت.

الصحة رزق ينزل من السماء بمقادير محددة معلومة وتوقيتات معجزة. الشهيق رزق ، شربة الماء رزق ولا ندرى كم مليون من المخلوقات رزقت بجزيئات شربة الماء قبل أن تصلنا ، ولا كم مليون من المخلوقات ستنتفع بها بعدنا! ولو كان في مقدور أحد جزيئات الماء أن ينطق لأخبرنا بأفضل مما في كتب التاريخ والعلوم. نحن نبتلع الماء - وغيره - بالجرعة ، ولكن الله يقدره بالذرة وما دونها ، ولكل ذرة تاريخ أوسع وأطول كثيرا من تاريخ الإنسان - ذلك المغرور - ولها مسار مرسوم إلى **يوم الوقت المعلوم**. وكم من إنسان رفع كوب الماء إلى فيه ولم يتمكن من شُربه ، وكل ميت دخل الشهيق في صدره ولم يقدر له الخروج ، فلن يخرج هذا الشهيق إلا في القبر ، مع الزفير الخاص!

وجدير بالذكر أن الإيمان بأن للرزق مُقدِراً لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب ، بل الإيمان يوجب الأخذ بها ، كما سنوضح تحت عنوان الأسباب. ولكن يحدث

الخطأ حين يبالغ الناس فى شدة الربط بين الرزق والتحايل عليه ، إذ لو كانت ،حقيقة الرزق بالحيلة لتحول الإنسان من مرزوق إلى رازق ، وهذا مستحيل.

العلم رزق بلا حدود ولا تنفد خزائنه لكن : ﴿... **وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾ - الآية 21 - سورة الحجر ، وهذا القدر المعلوم يحسبه الجهلاء نتيجة محضه للبحث العلمى وحده. الحكمة رزق عظيم ، الفرصة رزق يسوقه مدبر الكون بتوقيتات يسميها الجاهل صدفا. المعلومات رزق لمن يسعى ، الوقت رزق ، السكينة رزق. وكل هذه الأنواع وأضعاف أضعافها نعم لا تحصى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ا للهِ لا تُحْصُوهَا** ....﴾ الآية 18 - سورة النحل. ولكن من يوقن ومن يشكر! قليل!! فمن يتفكر يجد الطمع وعدم الثقة بما عند ا لله سببا لأغلب الهموم ، ووراء معظم الخلافات ، رغم أن الرزق مقسوم ومقدر ، وبالصبر والمثابرة يمكن تحصيله بالحلال ، لكن الجاهل يتعجله فى الحرام!! رغم أن تاريخ كل ذرة يتعامل معها الخلق مقدر ومسجل سلفا فى كتاب ا لله.

وترك التزيد (المغالاة) مما لا يحتاج إليه الإنسان عين من عيون الحكمة. والاقتصاد فى المباح يعد فهما لقيمة النعمة ووظيفتها وحسن الخلافة فيها. وقد كان مثلنا الأعلى - صلى ا لله عليه وسلم - لا يتكلف ما لا يحتاج إليه ، بل يتركه رغم أنه مباح ومتاح ، وكان لا يترك الحلال الذى يلزمه. وكان - صلى ا لله عليه وسلم - يستغنى بما وجد عما لا يجد ، فمرة يركب البغلة (الشهباء) ،

ومرة يركب الفرس ، ومرة يركب الناقة (القصواء) ، ومرة يركب الحمار ، ومرات يمشي حتى تدمى قدماه الشريفتان. وكان يأكل ويلبس ما تيسر ، ويأخذ مما رزقه الله ، ويبذل ما زاد عن حاجته ببساطة تليق بسمو نفسه - صلى الله عليه وسلم - وثقة فى الرزاق.

إن إنسان العصر يُهلِك (أو يستهلك) أضعاف ما كان يستهلكه جده ، ويسمى ذلك ارتفاعا فى مستوى المعيشة!! يلهث جريا وشقاء بهدف جمع الأموال من أى مصدر لينفقه او يهلكه بعد ذلك فيما يلهيه عن ذكر الله ، وفى غير الضروريات وفيما لا يلزم! بل وفيما يضر ، ولا يعرف ما هى حدود حاجته ويسمى ذلك طموحا! وكم من الزيجات لم تتم بسبب الخلاف على السجاد و الستائر ، أو غسالة الأطباق! وبهذه المناسبة ، نذكر - للعلم فقط - أن ريحانة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الزهراء رضى الله عنها ، وزوجها (صاحب أعز ضربة فى تاريخ الإسلام) كرم الله وجهه ، كان جهازهما حشوة ليف وفروة خروف. ولا نطالب أحدا بذلك ، ولكن من يعقل سيستفيد بالمعنى.

الأسباب

جميع الأشياء التى نحتاجها فى حياتنا هى بفضل الله موجودة ، إما بطبيعتها كالماء والهواء والأعضاء ، وإما بمسبباتها ، كالمأكل والملبس والمسكن. وتفاعل

obeikandl.com

الأسباب يولد كل ما نراه من حولنا وما لا نراه. وما نراه سببا هو أيضا نتيجة لأسباب سابقة ، فالتمدد سبب الانفعال ، والحرارة سبب التمدد وهى فى نفس الوقت نتيجة تفاعلات نتجت عن ظروف سببتها أسباب سابقة وهكذا ، نجد وراء كل سبب سلسلة طويلة من الأسباب المتواصلة لا ندرك لها قرارا فى عمق الزمن ، ولكن المتتبع للسلسلة سيقول فى النهاية : الله ، ومن هنا تكون بداية سلم الترقى.

والسبب القوى أو الكبير هو فى الأصل مكون من شبكة أسباب أصغر فأصغر. وما ظاهر الأسباب إلا حجب تستر قدرة الله ؛ ليتحقق الابتلاء ، ويتبين من يكفر ومن يؤمن بالغيب بالعقل ، وستر يد الله لحكمة ؛ لأنه حين تتجلى قدرة الله فلا يستطيع عاقل أن يكفر ، ولا حتى غير العاقل ، ومن المعلوم أن العجماوات والجمادات (غير العاقلة) تسبح بحمد ربها. فالخضوع للقدرة المباشرة الجلية ليس إيمانا ولكنه إجبار ، و **لا إكراه فى الدين.** إن الله ترك الإيمان بالغيب للعقل - دون أن تتجلى ذاته العلية ولا ما أراد إخفاءه - خيارا دنيويا ، وهذا هو محور قضية العقل ؛ لأن حضور الشىء أمام العين يلغى معنى الإيمان به.

والأسباب ليست فاعلة بذاتها ، ولكن المتفكر يدرك أن الأسباب مسخرة ، وأن قدرة الله ومشيئته هى الفاعلة الأصلية والموجدة ، ومنها تستمد القوة الدافعة للأسباب والمنشئة للأطوار فى كل شىء ، ولكن حكمته - جل شأنه - آثرت

openkandi.com

الإخفاء على الإظهار ليبتلى إيماننا بالغيب ؛ لأن جلال عزته وعظمته يوجب الإيمان به بمجرد الإخبار عنه. وملايين الناس فى الماضى أطاعوا الحُكام وصدقوا بوجودهم دون أن يروا حتى صور أولئك الحكام. ولكن الجهل وتلبيس إبليس وقصر النظر وتلوث العقول ، كل ذلك شكك فى وجود الله - جل وعز - وجعل الكثيرين من الناس يتركون عبادة الله إلى عبادة الأسباب ، أو عبادة الأسباب مع عبادة الله **على حرف**. وفى ذلك شكٌ شائع - والعياذ بالله - وهذا الشك يكمن خلف محاولات التملص من الدين تحت مسميات ودعاوى عديدة لا تخفى على الرصد الدقيق.

ونعود للأسباب ، فنجد أنه حين تتوفر الأسباب يأذن الله بظهور الشيء على يد من يسعى من البشر ؛ فالكل عيال الله ، خلقهم ورزقهم وهو ربهم ، ءامنوا أو كفروا ، فلا يغير ذلك من كرمه ورحمته فى الدنيا شيئا. والأسباب المادية تشمل المواد والإمكانات والطاقات ومثل هذه الأشياء موجودة فى الطبيعة بفضل الله وتدور صورها وأطوارها مع دوران الحياة. ومن الأسباب أيضا الفكر والعلم والدوافع والإرادة والإدارة والتنظيم والصبر والعزيمة ، ومثل هذه المجموعة من الأسباب الحاكمة (نسبيا أو جزئيا) يلعب الإنسان فيها دورا بارزا بقيادة العقل.

والعاقل يدرك حقيقة تسخير الأسباب فلا يعبدها ، ولكن يوظفها وهو يتأمل كيفية تفاعلاتها. والأسباب تعمل وفقا لسنن كونية قدرها العليم الخبير ،

واحترام هذه السنن والأسباب يُعد من جانب المؤمن فهما لحكمتها وإجلالا لخالقها - سبحانه وتعالى - ولا تعارض بين الأسباب وخالقها. وهذه الأسباب والسنن محايدة ومستقرة بقدرة ربها ، وكل من الملحد والكافر حين يأخذ بالأسباب التى سخرها الله له يمكن أن يصل - جيلا بعد جيل - إلى آخر ما تُوصِل إليه الأسباب التى يأذن بها الله. وهناك أسباب فوق أسباب ، فالكافر محصور فى الأسباب المحسوسة ، أما المؤمن فأمامه من الأسباب ما هو أرقى وأجدى ، وفوق كل الأسباب مُسبب ، هو الخالق سبحانه وتعالى.

ومما فَتن الكثيرَ من الناس على مر العصور - وفى هذا العصر بالذات - تطاوُل أهل الكفر فى البنيان وتقلبهم فى البلاد ، **والله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون** ، **متاع قليل ولهم عذاب أليم**. وبسبب إنفصال الحضارة الغربية عن دين الله ، ظن الغافلون - والمغفلون - وجود علاقة بين الكفر وما يسمى بالتقدم الحضارى ، وكان فى مقدمة المغفلين البعض ممن يحملون أوراقا مُرَسمة (شهادات) ، وقد اندفعوا يقبلون أعتاب الطاغوت الذى اصطنعهم لظاهر مصلحته ، ناسين رب الأرض والسموات. فما بالك بالبسطاء الذين تعودوا اتباع من يحملون الألقاب والشهادات ، ويثقون فيمن يحتلون المناصب المرموقة والذين تُسلط عليهم الأضواء! وفى المقابل ترى من ينتسبون للإيمان اسميا قد تخاذلوا وتفرقوا ، وصار أهل الإيمان الحق قلة توجه إليهم السهام من كل صوب وحدب ، ويُحال بينهم وبين جمع شملهم ؛ لأنهم لو اجتمعوا لرأى الناس منهم عجبا ، لكنها الفرقة التى فُرضت عليهم بكل الحيل الشيطانية الخسيسة.

يا أولى الألباب لو كان العلو فى الدنيا مقياسا للفلاح ما سمح العزيز بإلقاء خليله إبراهيم – عليه السلام – فى النـار ، ولوفّـر ا لله للمسيح – سلام ا لله عليـه – قصرا يتنعم فيه بدلا من نومه على الثرى ، وما عرّضه لمحاولة صلبه ، ولا عـرض خاتم المرسلين – عليه الصلاة والسلام – للإيذاء والحصار والجرح وطعام القديـد وهجر أحب البلاد إلى نفسه. لو كـان الـوزن حقيقيـا فـى هـذه الدنيـا مـا بِيـع الكريم ابن الكريم ابن الكريم – عليهم سلام ا لله جميعا – **بثمـن بخس دراهـم معدودة** ، لكن كل ذلك بسبب وضاعة الدنيا التى أُنزل إليها أبونا آدم – عليـه السلام – عقابا له وليس مكافأة ، فالدنيا دار ابتلاء وليست دار جـزاء ، لذلـك فا لله يعصم أحبابه مَن التعلق بها أو الركون إليها.

فليحذر من ابتسمت لهم الدنيا وغرقوا فى الترف ، وأعماهم الغرور فظنوا أنهـم أوتوا ذلك على علم عندهم! وحتى لا يختلط الأمر ، نؤكـد بوضـوح أن إبـراز مجتمع الإيمان مطلوب ، والسعى من أجله واجب لا يحتمل التقصير. وقيادة أهل الإيمان لنشاطات الحياة هو مفتـاح صلاحهـا ، لكـن الخطـر يكمـن فـى الظهـور الشخصى المصحوب بالغرور الذى يُحبط العمل ويفسد النفوس ، فليتدبـر كـل عاقل ، إلى أين المصير! ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِيـنَ لا يُرِيـدُونَ عُلُـوّاً فِى الأرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾- الآية 83 – سورة القصص.

العقلانية والعلمانية

بما أن العقل والعلم هما أبرز محاور هذا الكتاب إذن يلزم مناقشة بعض القضايا والمصطلحات المتعلقة بهما وعلى رأسها العقلانية والعلمانية ، كأمثلة للتحذير من صياغات مريبة تلوكها الألسنة وتشوش بها على الأذهان. وإن كانت مثل هذه المصطلحات المستحدثة قد راجت في البيئات التى تفلتت من الإيمان ، فعلى أتباع الرسالة النورانية الخاتمة أن يفطنوا للأمر ؛ حتى لا ننزلق إلى ما انزلقوا إليه فخسروا أنفسهم.

ونقول إن فطرة الإنسان مجبولة على احترام ما ينسب إلى العقل أو للعلم ، باعتبار التعقل والتعلم من الصفات الإنسانية المحمودة ، وهذا الميل الفطرى لدى الناس استغله البعض فى خداع عقول البسطاء ، فطلعوا على الناس – فى مجتمعنا – بمصطلحين غريبين ظاهرهما فيه الخير وباطنهما فيه أشد الخسران ، هما : العقلانية والعلمانية ، وهذا ويوجد مصطلحات أخرى كالحداثة والتنوير والاستنارة والتحضر وغيرها ، مما لا يتسع المجال للخوض فى خلفيتها. وهنا نكتفى بإلقاء بعض الضوء على مصطلحى: العقلانية والعلمانية ، ونحسب أن فى ذلك كفاية لتنبيه من يعقل. وإذ نحسن الظن بسلامة نوايا بعض من يدعون إليهما ، ففى نفس الوقت يحق للمتحفظ – على بعض ما علق بالمصطلحين وأمثالهما – أن يوضح بعض ما يراه صوابا وينكر ما يحسبه غير ذلك ، وعماده العقل والعلم أيضا ، فى إطار حرية الرأى التى لاينكرونها.

فعن العقلانية المنسوبة للعقل ، نقول بأن الاهتمام بـالعقل واجـب ، وتسـطع بـه صفحات علماء المسلمين ومنهم الغزالى (القديم - والحديث) والرازى والمحاسبى والعشرات غيرهم ، ولكن حسن إسلام نفوسهم لله وتوافق عقولهم وسلوكهم مع شرع الله عصمهم من السقوط فى المنزلق الذى رسمته العقول - التى حُرمت من نور الإيمان - بكثرة التزحلق فيه. ولم نسمع عالما نحسن الظن به يطالب بتمرد العقل على هدى خالقه ، فيطرح مذهب العقلانية مناطحا لشريعة الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ومحاولا تهميش دورهما فى إنارة الطريق ، فيسعى للشوشرة عليهما.

العقلانية عند دعاتها من غير المسلمين تعنى اعتماد العقل فقط - بحالته - فى كل نشاطات الحياة مادية كانت تلك النشاطات أو مجردة ، وما عدا العقل من مصادر الإدراك كالوحى - مثلا - فيجب إغفاله والاحتراس منه والبعد عنه وعدم الاطمئنان إليه وعدم الثقة فيه! هلا عرّفوا العقل أولا!!

ونشير إلى حقيقة أنه لا يوجد فى الدنيا عقلان متماثلان أو متطابقان ، وكل فرد فى الغالبية العظمى من البشر - حتى المجنون والمريض نفسيا - على قناعة شديدة بعقله وسلامة رؤيته ، وإلا لحاول تغييرهما. وهنا نسأل : بأى عقل نصيغ العقلانية التى يتحدثون عنها؟ وبعبارة أخرى ، بعقل من منهم يريدوننا أن نهتدى؟

العقلانية سواء فى الغرب النصرانى أو فى الشرق الملحد هى مذهب يؤمن فقط بالمحسوسات المادية التى تدركها الجوارح ، أما ما وراء المادة وأسبابها مما لا يخضع للتجربة فى المختبر فهو هراء! والغريب أن البعض من أهلنا يرحب بهذا الفكر ويروج له بحماس مريب!

•

إن من يتابع هذا الطريق سيجد فى صُحبته من يطالب باستقلال الكرة الأرضية عن الشمس (أو عن الكون) ، بزعم أننا أحرار فى أرضنا! وسيجد من يطالب بالاعتراض على الموت وطلب الحماية منه ، وأعرف أحدهم - وهو فى فترة شيخوخته الآن - إذا ذُكرت أمامه كلمة "الموت" تنتابه حالة نفسية جعلت أهله لا يخبرونه بموت أقاربه ؛ كى لا تنتابه الحالة!

•

وسبق من الجدود من طالب "هامان" بتعلية البنيان لمواجهة إله موسى ، عليه السلام! وذلك الجد كان يحسب أن عقله فوق كل العقول. إن الضلال قديم وألوانه شتى على مر العصور ، ومن العقل أن يعرف العقل حدوده فيلزمها ويبدع فى حدودها ، وأن يتعلم العاقل حدود الأدب مع الله ، فهذا يسبق - فى العقل المبصر الخاشع - كل المراسم ، و"البروتوكولات" ، وآداب "البلاط الملكى" التى يُعمل لها ألف حساب.

ليس من الصواب.أن نعتبر أن ما فى عقولنا من معلومات نامية - ساهمت فى تنمية الآليات - تكفى لكى تكون أساسا كافيا للفكر اللازم للهداية ، ولرسم منهج محايد ومستقر للحياة الإنسانية السامية. ويكفى هذا الفكر ضعفا أن حقيقته ما هى إلا جزئيات لمعلومات مبعثرة بعهضا ظنى وبعضها الآخر مكتشف بغير ترتيبه الطبيعى ، والثغرات بينها عديده والتعديل يحدث فيها يوميا. ولو كان العقل وحده كافيا لرسم منهح الحياة الطيبة فلماذا فشل فى تحقيق ذلك - على طول التاريخ - منذ بدء الخليقة إلى الآن؟ ولماذا تزداد شراسة الحروب ومعدلات الإجرام والإفساد يوما بعد يوم؟

أما "العلمانية" فتذكرنى بقول أحدّ رجال الجامعات : لقد ظللت لسنوات طويلة أراقب إنتشار هذا المصطلح فاستشعرت قوى خفية تنفخ فيه وتروج له بشدة تدعو إلى الشك ، فرجعت إلى "مختار الصحاح " (المصنف فى القرن السابع الهجرى) فلم أعثر على هذا المصطلح ، فانتقلت للمعجم الوجيز (طبعة وزارة التربية والتعليم سنة 1413 للهجرة) فوجدت فيه : [(العَلْمَانِى) - عند الغربيين المسيحيين : مَن يعنى بشئون الدنيا ، نسبة إلى العَلْم بمعنى العالَم ، وهو خلاف الكهنوتى.] ، فقلت فى نفسى: لكن الإسلام لا يتعارض مع شئون الدنيا ، بل جاء ليرقى بها وينير لها الطريق إلى الفلاح ، ولا يوجد فى الإسلام كهنوت ولا "إكليروس" ولا رهبانية ، ولا ذنب للمسلمين فى الظروف التى مرت بها الكنيسة ، ولا علاقة للإسلام بها!!! فماذا يريدون؟!

وعن العلمانية المنسوبة للعلم ، كما يظن بعض السذج ، نرى الكثيرين منهم يقصرون العلم على العلوم المشاهدة فقط ، أى التى يمكن استشعارها بالحواس وبالأجهزة المساعدة. فإن تابعناهم وسلمنا - مبهورين فى بلاهة - بما يقولون ، فإلى أى نهاية يمكن أن نصل؟! فى العلم المادى (الحِرفى القُح) وبما تشكل به من عقول مائلة فليس المسجد فى موازينهم إلا بناية كالكثير من البنايات ، بل إنه منعدم الفائدة المادية والذهاب إليه يعطل العمل والإنتاج ، على حد قول بعضهم!! وذلك لأن معنى القداسة لا قيمة له فى مقاييس العلم المادى (الذى يقيس بالكيلو جرام والمتر ودرجة الحرارة ولمعان الذهب) ، وعندئذ لا تتجاوز الكعبة المشرفة كونها عدة أطنان من الحجارة ، فلماذا يهتم بها الناس ويحجون إليها؟ بذلك المخطط يسقط تلقائيا معنى القداسة وبالتالى معنى الإيمان!!! وفى نظر العلم المادى لا فرق يذكر بين النبى والمنجم أو الكاهن!

هذا ما يهدف إليه البعض منهم ، وقد يُعذر حسن النية منهم والمخدوعون وحسابهم على ربهم! فهتك القداسة وإنكار الغيب يؤدى إلى نزع الألوهية من القلوب ، وإلغاء العبادات التى هى الوظيفة الأساسية للإنس والجن. وبذلك يُختصر الإنسان إلى مجرد جسد يتسكع فى الكون إلى أن يهلك ، وفى سياق هذا التسكع والضياع يبحث الجسد عن مختلف أنواع الشذوذ ليملأ الفراغ الروحى المدمر. وتصبح القيم والأخلاق مجرد بروتوكول تبادل المنافع ودعم الشذوذ ومهادنة السعار.

البعض منهم يقول: "نحن مسلمون نصوم ونصلـي ونحج" ، وفـى نفـس الوقـت يدعون إلى فصل الدين عن شئون الحياة ؛ لإرضـاء القيصر وأصحـاب النفـوذ. نحن نصدق أنهم يصومون مع الناس ، ويحجون على نفقة الدولة ، ولا نكذبهـم بخصوص الصلاة ، بل ونؤكد أننا بأعيننا نرى بعضهم فـى المسـجد - خصوصـا فى صلاة الجمعة وبعض المناسبات - لكن نقـول فـى أنفسنـا : إن العقـل الـذى يسجد بقناعة وإخلاص لخالقه إذا ذكر الله وجل ، ولا يمكن أن يطالب بالفصل بين شريعة الله وبين نظام الحياة ، والمؤمن لا يطالب بإنكار الغيب بل يتمنـى أن يكون أولا من المتقين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ - مطلع سورة البقـرة ، وبعـد ذلـك **يقيمـون الصـلاة** ويصومـون ويؤتـون الزكـاة ويرعـون حـدود الله. فـلا تستقيم العبادات مع إنكار علـم الغيـب ، أو مع إبعـاد الديـن عـن واقـع الحيـاة وشئونها ومجرياتِ الأمور فيها ، وقد سبق أن **قالت الأعراب ءامنا!**

وهناك من ابتُلى بالبلاغة وعذوبة اللسان ويستطيع أن يفصـل المصطلـح ويفسـره على حسب الظروف والمنافع ، والتيارات. وأعرف أحدهم : عـذب اللسـان ، عرك الحياة وناطح ما ناطح ، وهو يتكالب على الحيـاة وتـولى المنـاصب ، ولـه العديد من التلاميذ ، وتجاوز السبعين عاما ، وليس بينه وبـين دور العبـادة مـودة إلى الآن ، وكلما تقدم به العمر ازداد حرصـا علـى تنميـة رصيـده فـى البنـك ، ويقول (واثقا): "ذلك سينفعنى فى المستقبل حين تهجم عليّ الأمـراض ويتخلـى عنى الناس".

إن الجهل وضعف البصيرة يتكرران بصور مختلفة على مر العصور ، وكل الجهلاء وجدوا صعوبات فى تقبل الإيمان بالغيب ، فمنهم من بلغ به سوء الأدب لدرجة أن قال : أرنا الله جهرة ، ومنهم من طلب مائدة من السماء يحسها بيديه ويراها بعينيه ويملأ بها جوفه ، ومنهم من طلب مشاهدة الله والملائكة. تلك نماذج عتيقة لعقول من يرفضون الإيمان بالغيب! وتضليل إبليس يتكرر.

هل الأعمى إذا أصر على إنكار وجود الصور والألوان - لأنه لا يستطيع الإحساس بها - يعتبر عاقلاً؟! إن العاقل حين يعجز عن تصور ما يتحدث به الناس وما جاء به المبلغون الصادقون يكون الصمت له أفضل من الدعوة إلى الرفض بناء على قصور ذلك العاجز فى التصور أو فى الحس أو فى العلم. إننا لا ندعو إلى التسليم بالخرافة ، ولكن ندعو للتأكد من صحة وجواز رفض ما نرفض ، أو تجاهل ما نتجاهل.

ولمن يرفضون الإيمان بغير المحسوس ، نقول إن لدينا عشرات الأسئلة التى تدحض مبدأكم ، منها على سبيل المثال : تحت أى فرع من العلوم المادية تصنفون الفكرة أو الخيال؟ هل توزن الفكرة بالرطل؟ أم يقاس الخيال بالكيلومتر! وبأى مكيال تكتالون العقل! أم أن جميعها خرافة!

Ob eikane.com

إن رد سلوك الإنسان كله إلى أسباب حسية جسدية - بدون معان - واختزال الإنسان فى صورة آلية للهيكل المادى ، بلا فكر ولا مشاعر رفيعة ولا خيال ولا قيم عليا ولا صلة بخالقه إنما هو مسخ وهبوط إلى المستوى الحيوانى الضيق ، وذلك ضلال بالغ الخطورة ؛ فلا يمكن فهم الكل الإنسانى معزولا عن خالقه. قد تنقطع صلة الإنسان الضال بخالقه ، لكن صلة الخالق ورحمته بالمخلوق لو انقطعت لحظة واحدة لهلك المخلوق.

إن صلة الله بالإنسان شديدة العمق فى داخل الكيان البشرى ، صلة منذ العهد الأول والتصوير والتَسوية والنفخ فيه من روحه ثم الرعاية المتصلة بكل ذرة فى كيان الإنسان. وبالمنطق العلمى فإن عظمة توافق الوحدة الكونية تُوجب على العاقل أن يتعامل مع المفردات المحيطة بأدب والتزام ولطف وتدبر واطمئنان وحكمة.

إن الإنسان لا يجب أن يُعامل معاملة المفردات المادية البحتة (الصرف) ، لأن حقيقة الإنسان ليست كذلك ، فالإنسان له تكوينه النفسى ومعارفه ، ويتأثر بشدة بالمعانى التى يتعامل فيها ويستنتجها عقله الذى يدير نشاطه فى الحياة. ولكن الانبهار بما استحدث فى مجال المعارف المادية ، جعل أتباع الفكر العلمانى يتصورون الإنسان كمجموعة من الأجهزة المادية يتحكم فيها المخ كما يتحكم الكمبيوتر فى الماكينات! ومثل هذا التصور ليس جديدا ، فأذكر أنى سألت أحد الأطباء الشبان أيام المد الشيوعى فى مصر (حوالى عام 1966):

كيف تتخيل الإنسان فى ضوء ما تعلمته فى كلية الطب؟ فأجاب على الفور : " أتخيله كالراديو تماما"! وفى عام 1996 يُعبر أحد أساتذة الذكاء الصناعى ويقول: "إن المخ كمبيوتر رائع"!

إلى أين تتجه العقول؟

أ

الهوية

أخطر مرحلة فكرية يمر بها الإنسان هى مرحلة بداية تكوين عقله ، فتلك البداية تمثل الأساس الذى يتحدد به معالم البناء التى يصعب تغييرها بعد ذلك إلا بشق الأنفس. فعندما يشب الطفل وتتفتح مداركه يُكثر من الأسئلة التى تطلب المعرفة باشتياق وبلا ملل ؛ فالإنسان لديه الرغبة الفطرية فى المعرفة لتنمية عقله ، فيسأل : ما هذا؟ مافائدة هذا الشيء؟ ويتدرج بعد ذلك فوق الماديات فيتأمل نفسه العجيبة – شاغله الأول – ويتساءل : من أنا؟ لماذا وجدت؟ ما علاقتى بهذا الوجود؟ ما دورى فى الحياة؟

وبقدر ما يُثار العقل يكون الاستمرار فى التساؤل ، يريد أن يعرف أسرار هذا الوجود العجيب ، ما الفائدة؟ ثم يرقى ويسأل : ما المعنى؟! ما الحكمة؟!. وعلى هذه الأسئلة يتلقى شتى الإجابات التى تشكل معالم وعيه وثوابت عقله ، فا لله ا لله فى النشء.

وتتابع الأسئلة فى السن المبكرة يدل على شدة العطش وشراهة الاستقبال الذى لا يتيح فرصة كافية للفرز ، فضلا عن ضعف القدرة على التمييز فى تلك السن ، وهنا مكمن الخطورة ؛ حيث إنه من الممكن تغذية صغار السن بالكثير من المفاهيم الخاطئة عمدا أو جهلا. فصغار السن يكونون عجينة سهلة التشكيل ، ولذلك تجد الكثير من طباع ومفاهيم الكبار تشكلت منذ الصغر ونمت معهم. فتجد التعصب كصفة ذميمة ، أو الصدق كصفة حميدة ، قد تم تغذية الطفل بها وزرعها فيه منذ الصغر. وبزرع الصفات والقيم والمفاهيم تتحدد ملامح شخصية الفتية ، أى تتميز الهوية النفسية. والأشخاص أصحاب الملامح النفسية المتجانسة يميلون نحوَ الترابط التلقائى فى إطار هوية مشتركة وهذا أهم أسرار قوى الجماعات. وحين تتمزق (أو تضعف) الهوية تتمزق جماعتها بالتالى.

و تمزيق الدول أو الجماعات يبدأ بتمزيق الهوية ، وذلك لا يحتاج لقنابل أو صواريخ ، لكن له حيل وأساليب عقلية. فالمواجهة المباشرة للجماعات مكلفة جدا – ماديا – وقد لا تجدى المواجهة. فلا يستطيع أعتى الطغاة أن يمنع جماعة مؤمنة من الصوم ، ومن الحماقة مطالبة جماعة من البوذية – مثلا – بالتوجه لأداء صلاة العشاء. هذا وذاك متعذر بسبب شدة وضوح هوية كل جماعة من الجماعتين المذكورتين. والوضوح النسبى لهوية الشعب المصرى – فى يوم ما – جعل "نابليون" يتظاهر بإعلان إسلامه ، وجعل الرئيس الأمريكى الأسبق (جيمى كارتر) يقرأ – بلهجته –من سورة الأنفال ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ فى مجلس الشعب المصرى ، هذا رغم عدم قناعة

obeikandi.com

كل منهما بالإسلام ، ورغم ما كان يتمتع به كل منهما من قوى عسكرية يحسب العالم كله لها ألف حساب ، إلا أن ما وضح من هوية غالبية أهل مصر - فى ذلك الوقت - فرض على كل منهما أن يسلك مسلكه فى مواجهة الهوية التى لا تدعمها قوة عسكرية ولا اقتصادية ذات شأن ، لكن من المعلوم أن نمو الهوية يدفع لتنمية الاقتصاد وبناء القوى العسكرية ويحفز للتضحية.

الاقتناع

الاقتناع هو نتيجة (أو حالة) عقلية تتبلور فى حدود المعلومات المتوفرة لدى عقل معين ، أى أنه الرضا بالمعلومات التى توفرت لدى للعقل بخصوص مسألة معينة دون أن يكتشف العقل تناقضا يذكر بخصوص تلك المسألة ، وهذا وضع مريح للعقل ، بغض النظر عن مدى سلامته ، وقد يحدث ذلك فى حالة نقص المعلومات بسبب كسل العقل عن السعى لجمع مزيد من المعلومات عن المسألة فيكتفى بما يصله جاهزا ، ومن المعلوم أنه كلما قلت كمية المعلومات - حول مسألة محددة - كلما قل احتمال تناقض تلك المعلومات ويكون الاقتناع قريبا ، والعكس صحيح ففى حالة تقصى المسألة يمكن أن يتبين للإنسان تناقضات ما ، أو يزداد اقتناعا بالشيء.

وأذكر هنا ما سمعته من زميل مهذب اقترب من سن الإحالة للمعاش إذ يقول: "إن فلانا يجلس معى فيقنعنى بوجهة نظره - فى قضية سياسية - وبعد

المناقشات أجدنى مقتنعا بالحجج التى ساقها وهى وجيهة ، ثم أجلس بعد ذلك مع خصمه فيسوق حججا تبدو أشد وجاهة فأقتنع بها وأصبح فى حيرة من أمرى أيهما أصوب؟! ولم أعد أستغرب إذا أتى ثالث وساق لى حججا غير هذه وتلك فأقتنع بها أيضا ، فأين الصواب وأين الحقيقة إذن؟!" إذن الاقتناع حالة عقلية ليس إلا.

والاقتناع يمكن أن يكون سلبيا أو خاملا ، ولذلك فلا يكفى وحده لبدء الحركة الذاتية ، بل يلزم أن يوجد معه حافز وشجاعة وعزيمة أو تيار وظروف مشجعة لمحدودى العزم. وكمثال واقعى أذكر ما قاله أحد المعارف - وقد نال قدرا متميزا من التعليم - ضمن نقاش طويل إذ يقول : " إننى مقتنع بالعقيدة الفلانية وأن أساسها خطابات سماوية صحيحة ، والدليل على ذلك كذا وكذا ..... ولكن ليس معنى ذلك أننى سأتحول إليها وأغير عقيدتى!"

فالأشياء الموروثة لا تخضع كثيرا للعقل والعلم والمنطق ، بل تتهرب منها فى متاهات اللاوعى بشتى الحيل ؛ خوفا من التغيير الذى يصاحبه فترة إنتقالية (Transient) تبدو غير مأمونة العواقب ، ويندر فيها الاستقرار الذى تركن إليه أغلب النفوس ، وتستسلم له.